الباب الرابع

لو سترته بثوبك

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« من ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة »[1] .

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم [٢٦٩٩ / ٣٨] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

لو سترته بثوبك

كثيراً ما يدفع الكبر وزهوة العصمة من المعصية بعض المحتسبين إلى الاستطالة على صاحب المعصية ، والتشهير به وهتك ستر اللّه الذى وضعه اللّه عليه .. ولعل ما خفى منه كان أعظم .

والخلل هنا ناشئ من أن المحتسب يجعل من التنكيل بالعاصى هدفاً له ومن ردعه والتشهير بما يناله من فضيحة وعقاب وسيلة لزجره وزجر من تسول له نفسه أن يسلك مسلكه .

والحق أن هذا التفكير مناقض تماماً لسلوك أصحاب الدعوات الذين ينبغى أن يجعلوا هداية الخلائق هدفهم ، وأقالة عثراتهم والأخذ بأيديهم سبيلاً لنجاتهم .

فالتشهير بصاحب المعصية يكسر حواجز الحياء التى تمنعه من التبجح والمجاهرة بمعصيته ، وتشيع هذا المنكر بين الناس وتولد فى قلوبهم الاستهانة به ، فضلاً عن أنها تقطع طريق التوبة عليه بعد أن اشتهر بين الناس بمعصيته .

لذا كان الستر على صاحب المعصية ضابطاً هاماً يحيط هذا الواجب العظيم بروح التواضع والدعوة ، وينظمه فى منظومة الإسلام المتكاملة الحريصة على هداية الخلائق والسير بهم نحو الجنان .

وأعظم الدروس درس النبى العظيم لبعض الأنصار الذين جاءوه بمولى لهم قد زنا ليقيم عليه الحد ، وأخذ النبى صلى اللّه عليه وسلم يسأله تفاصيل إقراره ، ويفتح له أبواب النجاة ، والرجل مصر على إقراره بالزنا بكل تفاصيله ، لم يكن هناك بد من أن يؤمر به فيرجم إقامة لحد اللّه عليه ، ولكن المصطفى صلى اللّه عليه وسلم لم يكن مجرد قاض يقضى بالحد ثم ينصرف ، ولكن معلم البشرية وهاديها يلتفت إلى مولى المحدود وكان اسمه هزال ، ويقول له عبارته التى رددها الدهر قانوناً للدعاة والمحتسبين على مر العصور : « لو سترته بثوبك يا هزال لكان خيراً لك » (١) .

فهو ينكر عليه أن يضبط الرجل هذه الجريمة ويسلمها للقضاء ليوقع العقوبة عليه بل يفضل أن يستره وينصحه ، ويعظه بعد مزاولته عن المنكر لعله أن يتوب فيتوب اللّه عليه .

والأحاديث النبوية فى ضرورة الستر على أصحاب المعاصى كثيرة نسوق بعضها فى إشارة لأهمية هذا الأمر .

---

(١) رواه أبو داود [٤٣٧٧] عن يزيد بن نعيم عن أبيه هزال رضى الله تعالى عنهما .

فى الحديث أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها » [1] .

فرغم أنها أمة يقل تضررها بالتشهير ، والتعيير كثيراً عن الأحرار من أصحاب المكانة ، إلا أنه صلى اللّه عليه وسلم منع وليها من تعييرها والتشهير بها .

وفى حديث عقبة بن عامر معنى دقيق فى ثمرة الستر إذ روى عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قوله : « من رأى عورة فسترها كان كمن استحيا موءودة من قبرها » [2] .

إذ يشبه النبى صلى اللّه عليه وسلم الستر على صاحب المعصية باستحياء الموءودة ، إذ أن ضبط صاحب المعصية كقتلة فالتشهير به يميت قلبه ، ويسقط هيبة المعصية من قلبه ويذهب بخلق الاستحياء

---

(١) رواه البخارى [٢١١٩] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ومسلم [١٧٠٣ / ٣٠] .

(٢) رواه أحمد فى المسند [٤ / ١٥٨] وابن حبان فى صحيحه [٥١٧] عن عقبة ابن عامر رضى الله تعالى عنه وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

من المعصية منه ، فإذا ستر الإنسان عورته فكأنه رد له حياة قلبه بعد أن كادت تذهب ، أو كأنه إحياء له بعد ممات أو رقاد كاستحياء جسد الموءودة من الموت وقد تهدد النبى صلى اللّه عليه وسلم أولئك الذين يتجاهلون هذا الأمر الربانى والتوجية النبوى بعقوبة من جنس جريمتهم ، لكى يرتدعوا عن ذلك فى حديث ابن عباس يرفعه : « من ستر عورة أخيه ستر اللّه عورته يوم القيامة ، ومن كشف عورة أخيه كشف اللّه عورته حتى يفضحه فى بيته » (١) .

عقوبة شديدة لاشك تجعله يفكر ألف مرة قبل أن يتجاوز هذا التوجية النبوى الشريف إذ أن الذى يتوعده هو المولى عزّ فى علاه وتوعده بأن يفضحه مهما استخفى بجرائمه ولو فى عقر بيته هذا غير فضيحته فى الآخرة .. بينما يعد أولئك الذين التزموا التوجيه النبوى بالستر فى أصعب أيام الفضيحه يوم القيامة بل إن الوعيد يتسع لبلاء من جنس البلاء الذى ابتلى به صاحب المعصية المشتهر به وذلك فى حديثين :

---

(١) رواه ابن ماجه [٢٥٤٦] وقال الألبانى : صحيح .

الأول : عن معاذ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله » [1] .

(١) رواه الترمذى [٢٥٠٥] وقال الألبانى : موضوع . وقال العجلوني في كشف الخفا [٢٥٤٤] من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله.رواه الترمذي وابن منيع والطبراني وغيرهم عن معاذ مرفوعا. وقال الترمذي حسن غريب وليس إسناده بمتصل. وقال ابن منيع قالوا يعني من ذنب قد تاب منه ونحوه فليجلدها ولا يثرب أي لا يوبخ ولا يقرع بالزنا بعد الجلد. وتقدم ابن مسعود لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلبا. ولابن شيبة عن أبي موسى من قوله نحوه وعزاه الزمخشري في تفسير الحجرات لعمرو بن شرحبيل بلفظ : لو رأيت رجلا يرضع عنزا فضحكت منه لخشيت أن أصنع مثل ما صنع وللبيهقي عن يحيى ابن جابر قال ما عاب رجل قط رجلا بعيب إلا ابتلاه الله بذلك العيب وعن النخعي قال إني لأرى الشيء فأكرهه فما يمنعني أن أتكلم فيه إلا مخافة أن أبتلى بمثله.ومن كلام بعضهم لا تعير أخاك بما فيه فيعافيه الله ويبتليك. وللحافظ ابن حجر رسالة: أجوبة عن أحاديث وقعت في مصابيح السنة ووصفت بالوضع: منها هذا الحديث فأجاب الحافظ ما يلي: أخرجه الترمذي =

والثانى : عن واثلة بن الأسقع يرفعه : « لا تظهر الشماته بأخيك فيرحمه اللّه ويبتليك » [1] .

= من طريق مكحول عن واثلة بن الأسقع وقال: حديث حسن غريب ومكحول قد سمع من واثلة وأخرج له شاهدا يؤيد معناه من طريق ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن واثلة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله. وقال أيضا: حسن غريب هكذا وصف كلا منهما بالحسن والغرابة. فأما الغرابة: فلتفرد بعض رواة كل منهما عن شيخه فهي غرابة نسبية فأما الحسن: فلاعتضاد كل منهما بالآخر وخالف ذلك ابن حبان فقال: لا أصل له من كلام النبي صلى الله عليه وسلم انتهى.مشكاة المصابيح [٣١١/٣] . وقال القرطبي فى تفسير سورة النساء ١٧ /١٨ : وروى صالح المري عن الحسن قال: من عير أخاه بذنب قد تاب إلى الله منه ابتلاه الله به.

(١) رواه الترمذى [٢٥٠٦] وقال المتقي الهندي فى كنز العمال [٣٠٣١] لا تظهر الشماتة لأخيك - وفي لفظ بأخيك فيعافيه الله ويبتليك. رواه الترمذي والطبراني عن واثلة مرفوعا وقال حسن غريب وفي رواية لابن أبي الدنيا فيرحمه الله بدل فيعافيه الله ويبتليك وروى ابن عساكر عن نافع أن ناسا كانوا =

وما أعظم أن يعاقب ذلك المدل بعصمة اللَّه له من هذه المعصية المغتر باجتماع الناس من حوله ، المشهر بعباد اللَّه من المسلمين ، أن يبتلى بمثل ما ترفع عنه من معصية واستعلى به على عباد اللَّه .

ولنستمع بعد ذلك إلى النداء النبوى ، وهو ينادى فى أصحابه بصوت رفيع - يعنى مرتفع - فى حديث ابن عمر يا معشر من أسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تطلبوا عثراتهم » [1] .

= في الغزو مع أبي عبيدة فشربوا الخمر فكتب إليه عمر رضي الله عنه أن يجلدهم وكان الناس عيروهم فاستحيوا ولزموا بيوتهم فكتب عمر رضي الله عنه إلى الناس لا تعيروا أحدا فيفشو البلاء فيكم. وقال العجلوني في كشف الخفا [٧٥٤٧] لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك. رواه الترمذي عن واثلة بن الأسقع وقال الترمذي هذا حسن غريب. وقال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب [٣٠٩/٨] : لا أصل له من كلام النبي صلى الله عليه وسلم. كذا قال ابن حبان وذكر هذا شارح الترمذي [٢٠٧/٧] . وذكره التبريزي في مشكاة المصابيح رقم [٤٨٥٦]. وانظر كلام الحافظ ابن حجر على الحديث السابق .

(١) جزء من حديث رواه الترمذى [٢٠٣٢] وقال الألبانى : =

فقلوب أولئك الذين يتتبعون عثرات الناس ويعيرونهم بها لم يدخلها الإيمان قط كما قال صلى اللّه عليه وسلم ، وإنما كان إسلامهم بألسنتهم فقط » ، وكيف يكون الإيمان فى قلوب لاتحمل للمسلمين إشفاقا وحبا وحرصا على نجاتهم وإنما تحمل تربصا وتتبعا للعثرات وتعييرا وتشهيرا بينما يكون الحب فى اللّه أوثق عرى الإيمان ، وآية الحب أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك .

وبعد .

إنه لا ينبغى لأى مؤمن أن يفرح بأن يضبط صاحب معصية وهو قائم على معصيته ، فيسارع بفضحه وتسليمه إلى حيث ينال عقوبته والتشهير به ، وهو لا يدرى لعله أن يتوب فيتوب اللّه عليه ، وإنما ينبغى أن يفرح بأن يأخذ بيد ذلك العاصى عن معصيته ويسير به إلى طريق الهداية والتوبة ، فإن اللّه ابتعثنا دعاة وهداة ، ولم يبعثنا جباة عتاة جبارين ، ولعل اللّه أن يختم له بالخير ويختم لك بغير ذلك أعاذنا اللّه ، وإياك من دل العصمة أرأيت لو وجدت أخاك وقد

= حسن صحيح وابن حبان فى صحيحه [٥٧٦٣] وقال الأرناؤوط : إسناده قوى . كلاهما عن ابن عمر رضى الله تعالى عنه .

وقع فى حفرة أليس الأولى أن تمد إليه يدك لتنقذه منها أم تقف على رأس الحفرة لتنادى فى الناس ليشهدوا ذلك الأحمق الذى غفل فلم ير الحفرة فوقع فيها ، وما يدريك لعل اللّه يغش عينك فتقع فى ذات الحفرة وتلقى ذات الجزاء .

نعم الستر هو هدى النبى صلى اللّه عليه وسلم فى الاحتساب على أصحاب المنكرات ، وقد وعد الشارع الحكيم من يستر على صاحب المعصية بالستر فى الدنيا والآخرة بل وبدخول الجنة ، وذلك فى حديث أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه مرفوعاً : « من ستر مسلما ستره اللّه فى الدنيا والآخرة » (١) .

وكذا فى حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال : « لا يرى مؤمن من أخيه عورة فيسترها عليه إلا أدخله اللّه بها الجنة » (٢) .

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم [٢٦٩٩ / ٣٨] .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط [٢ / ٢٨٧ / ١٥٠٣] وفى الكبير [١٧ / ٢٨٨ / ٧٩٥] عن عقبة بن عامر رضى الله تعالى عنه وفيه : لا يرى امرؤ .

ولا يخفى أن الستر على أصحاب المنكرات يعد من أهم واقيات المجتمع من إشاعة الفاحشة وانتشارها بين الناس ، وهو الهدف الأساسى من الحسبة ، والتصدى لأهل الانحراف .

○ ○ ○